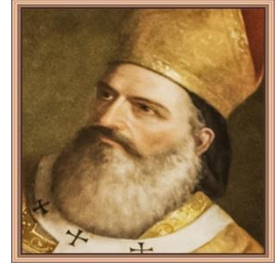


سيرة البطريرك إسطفانوس الدويهي وأبرز منجزاته^١

(١٦٣٠ - ١٧٠٤)



حياته

يَعْتَبِرُ الموارنة إسطفان الدويهي الإهدبيّ أعظم بطاركتهم شأنًا، وأوّل مرجع علميّ في كتابة تاريخهم وتنظيم طقوسهم؛ لا بل إنّه أحد كبار المؤرّخين العرب في العهد العثمانيّ، وأبو التاريخ اللبنانيّ الحديث، ورائد فدّ من رواد النهضة الفكرية في الشرق.

مولده ودراسته في روما

وُلِدَ في ٢ آب ١٦٣٠، [يوم تذكّار رئيس الشماسية وأوّل الشهداء مار إسطفان، لذلك دُعِيَ باسمه] في منطقة عالية من جبال لبنان، بالقرب من غابة الأرز، في إهدن، البلدة التي أعطت الكنيسة المارونيّة بطاركة وأساقفة ورهبانًا ونسّاكًا وكهنة ومفكرين وزعماء. والده هو الشدياق ميخائيل ابن الخوري موسى، وأمّه "الحاجة" مريم الدويهي^٢. فَقَدَ أباه وهو في الثالثة من عمره فنشأ يتيمًا. ولمّا بلغ الحادية عشرة، ونزولًا عند طلب نسيبه المطران الياس الإهدبيّ، أرسله البطريرك جرجس عميرة (١٦٤٤+)، الإهدبيّ الأصل، إلى المدرسة المارونيّة في روما، مع ثلاثة أولاد آخرين، هم: يوسف الرامي وأخوه بطرس اللذان تكتنبا في ما بعد باسم التولاوي، وبطرس ابن القسّ إبراهيم من بيت أميّة الهدناني، الذي رسمه الدويهي في ما بعد مطرانًا على صيدا. وصلوا جميعًا في شهر حزيران سنة ١٦٤١، برفقة القسّ سمعان التولاويّ (خال يوسف وبطرس المارّ ذكرهما) والشمّاس يوسف فتیان الحصريّ^٣.

دامت إقامته في روما أربعة عشر عامًا، حتّى ٣ نيسان ١٦٥٥؛ درس خلالها ما كان يدرسه طالب الكهنوت في ذلك الوقت، أي الفصاحة والمنطق والرياضيات والفلسفة واللاهوت، فضلًا عن اللغات العربيّة والسريانيّة والإيطاليّة واللاتينيّة واليونانيّة، حتّى عمّيت عيناه من كثرة الدرس والمطالعة؛ وبأعجوبة من السيّدة العذراء عاد إليه بصره، فتابع دروسه. وبعد عودته إلى لبنان، رافضًا البقاء في

^١ نقلًا عن: الجميل، الخوري [المطران] ناصر، البطريرك إسطفان الدويهي: حياته ومؤلفاته، طبعة أولى، بيروت، ١٩٩١، ص ١٥ - ٣١، ٣٣ - ٣٤، ٣٦ - ٣٧، ٤٢. ونشير إلى أنّ الحواشي هي من وضع المؤلّف، باستثناء ما هو موضوع منها بين معكوفين.

^٢ عن أجداده وأفراد عائلته راجع المطران بطرس شبلي، ترجمة أينا المغبوط إسطفانوس بطرس الدويهي، بيروت، ١٩١٣، ص ٤ (شجرة العائلة الدويهيّة)، ثمّ ص ٥ - ١٠. والأب إبراهيم حرفوش، "الكوز المحقّقة من آثار آبائنا البطاركة المغبوطين" في مجلّة "المنارة" ٣ (١٩٣٢)، ص ٥٠٠ - ٥٠١. وأنظر أيضًا الأب يوحنا فرح السبعلي، مخطوط سمط الحبيب، الجزء الثالث، ص ٧٧٤، "شجرة أسرة الدويهيّة التي يزعم بنو عبيد أنّهم منها". منقولة عن كتاب للبطريرك إسطفان الدويهي في بكركي والذي نقلها هو الخوري إسطفان أسعد الدويهي، من كتبه أسرار المقام البطريركيّ. تكرّم بما فارس بك لحود عبيد. وكما أفادنا الأب اغناطيوس سعادة، فهي تختلف عن الشجرة التي طبعها المطران شبلي في كتابه المذكور. ومخطوطة سمط الحبيب موجودة في مكتبة المرسلين اللبنانيين.

^٣ راجع الأب إبراهيم حرفوش، "تلامذة المدرسة الرومانيّة القديمة" في مجلّة "المنارة"، ٦ (١٩٣٥)، ص ٧٤٠ - ٧٤١. راجع أيضًا كتابنا بالفرنسيّة حول مدرسة روما المارونيّة وخريجائها: Nasser Gemayel, *Les Echanges Culturels entre les Maronites et l'Europe, du Collège Maronite de Rome (1584) au Collège de Ayn Warqa (1789)*, 2 vols. Beyrouth, 1984, 1168 p.

أوروبًا للتدريس في إحدى جامعاتها، على غرار بعض تلامذة المدرسة المارونيّة، كالصهيوبيّ والحاقلايّ وشلق وغيرهم، رسمه البطريك يوحنا الصفراوي (١٦٤٨-١٦٥٦) كاهنًا في ٢٥ آذار ١٦٥٦. فما فتى يعلم ويعظ ويسمع الاعترافات ويصلح المتخاصمين ويصحّ ويؤلّف ويعمل كلّ ما بوسعه لنشر الديانة الكاثوليكيّة. ثمّ أنشأ مدرسة في دير مار يعقوب الأحباش قوامها ٤٠ تلميذًا تقريبًا وكان يعلمهم مجّانًا مبادئ اللغة السريانيّة والتعليم المسيحيّ والعادات الحميدة؛ أكثر من إثني عشر تلميذًا منهم دخل السلك الكهنوتيّ. وما انفكّ، طوال خدمته الرعائيّة، يجادل الهراطقة والأترّك في أمور الدين، ويُعدُّ الكتب المفيدة والمتنوّعة لمساعدة النفوس، منها قاموس سريانيّ-عربيّ، وبعض رتب طقسية وأخرى تتعلّق بالأسرار السبعة. ولو تيسّر له المال الكافي لطلّب من أحد الكتبة نسخ زُتب أخرى غير موجودة في الشحيمة المطبوعة، ولنسخ حياة القديسين وزُتب الأسرار السبعة التي أصبح وجودها نادرًا، إمّا بسبب الحيف وإمّا بسبب النقص في النسخ^١.

الدويهي في حلب للمرّة الأولى

أوفده البطريك جرجس البسبعلي (١٦٥٨-١٦٧٠) واعظًا وحادمًا للرعيّة المارونيّة في حلب التي ذهب إليها للمرّة الأولى، خلال صوم ١٦٥٨، برفقة المطران أندراوس أخيجان، بطريك السريان الكاثوليك في ما بعد، ومن خزيجي المدرسة المارونيّة. خدم فيها خمسة أشهر يعظ، بالربيّة، ويعلم ويؤدّ اليعاقبة، أيام الآحاد والأعياد، في كنيسة مار الياس المارونيّة. وأحيانًا كان يعظ، بالإبطاليّة، [عندما يكون] القنصل الفرنسيّ فرنسو بيكيت وسائر التجّار الأوروبيّين [حاضرين]. ولقد تسوّى له، خلال رسالته في حلب، أن يجادل أحد الوزراء الإنكليز، وبطريك الأرمن، ومطران الروم، وآخرين، حول "أولويّة الكنيسة الرومانيّة". وكان يبيّن لهم أنّها الصخرة التي أسّس عليها المسيح كنيسته، وأنّ أبواب الجحيم، أي الهراطقة والأترّك، لن تقوى عليها.

الدويهي في جعيتا

وبعد عودته إلى جبل لبنان، تسلّم براءة قبوله في عداد مُرسلي مجمع انتشار الإيمان في الشرق والذي كان عليه، بموجب هذا الامتياز، أن يزوّد الكرسيّ الرسوليّ بتقارير وافية عن نشاطاته، وأن يقوم بما يمليه عليه، لقاء مرتّب سنويّ. وبسبب ظلم الأترّك في نواحي لبنان الشماليّ، قرّر اللجوء إلى بلاد كسروان حيث يسود الأمن والسلام تحت حكم الأمير الدرزيّ^٢ والشيخ أبي نوفل الخازن. واختار الخوري إسطفان الدويهي الإقامة مع أخيه بالقرب من عينطورة، في جعيتا، حيث الحصاد كثير وحيث يقيم بعض الآباء اليسوعيّين. اقتضرت رسالته في هذه الناحية على تعليم خمسة عشر تلميذًا العلوم الإنسانيّة والكنسيّة والتعليم المسيحيّ واللغة السريانيّة. واهتمّ أيضًا بتدريس اللغة العربيّة إلى الأب أنطون اليسوعيّ المقيم في دير عينطورة. أمّا أيام الآحاد والأعياد فكان يعظ المؤمنين في الكنائس والأديار في القرى المجاورة، داعيًا المتخاصمين إلى المصالحة والسلام وتناول الأسرار المقدّسة، وإلى نبد الأحقاد والعيش بخوف الله قولًا وفعالًا. ولم ينقطع أبدًا، خلال هذه الفترة، عن كتابة مؤلّفه "منارة الأقداس". وكان أن توفّي، سنة ١٦٥٩، المطران الياس الإهدبيّ، فتوجّهت الأنظار نحوه حتّى يخلفه على أبرشيّة إهدن. وكتب الإهدثيون بهذا الخصوص إلى البطريك جرجس البسبعلي الذي لجأ يومئذٍ هو أيضًا

^١ استقينا كلّ هذه التفاصيل من رسالة إسطفان الدويهي إلى كرادلة المجمع المقدّس في ١٦/٩/١٦٥٨. راجع ملحق المرسلات رقم ١.

^٢ فترة سياسة مضطربة بين القيسيّة والبيمنيّة. سنة ١٦٥٨ قرعماز وأحمد تسلّموا الحكم مكان والدهما ملحم المعنيّ. ضيق عليهما والي دمشق أحمد باشا الكبرلي فهربا إلى كسروان وجبيل وتسلّم حكم الشوف محمّد ومنصور علم الدين.

إلى نواحي كسروان، بسبب الحيف والبُص. لكنّ إسطفان الدويهي رفض ذلك بحجّة أنّ المقام كبير وأنّه يستحيل عليه، أسقفاً، متابعة ما قد بدأه، كاهناً^٢.

الدويهي زائر بطريكيّ

سنة ١٦٦٠، بعد أن أقام في جعيتا ما يقارب السنة، كلّفه البطريرك البسبعلي بزيارة بلاد الشوف وصيدا والبقاع وبلاد بشارة ومرجعيون ووادي التيم وبلاد أخرى مجاورة، حيث الحصاد كثير والفعلة قليلون؛ وهذه الأصقاع هي بعيدة، نسيباً، عن الكرسيّ البطريركيّ، وغالبية سكّانها من الأتراك والدروز والروم الذين يخلقون متاعب شتّى للموارنة بسبب الاختلاف حول مسائل الإيمان كأولويّة الكنيسة والصيامات وعيد الفصح. فاجتهد الدويهي، خلال زيارته، في تفقّد كهنة الرعايا وفي تسوية الخلافات الحاصلة في رعاياهم. وكان يشرح لهم العقيدة المسيحيّة، ويدعو للاعتراف، ويقوم بعمل المرسل. وبعد جولة دامت ثلاثة أشهر، قدّم تقريراً مفصّلاً إلى البطريرك الذي ترك كسروان وعاد إلى كرسيّه في قنوبين، لأنّ أمير الدروز^٣ استولى على الحكم في جبل لبنان وسلّم أبا نوفل الخازن السلطة في كسروان. فسُرّ البطريرك لنجاح زيارة الدويهي وطلب منه البقاء بجانبه في قنوبين، لأنّ أقرباءه في إهدن طالبوا به من أجل إقامة مدرسة لأولادهم. فكان أن عاد من جديد إلى إدارة مدرسة دير مار يعقوب الأحباش، وكان الأب موسى ابن الحاج يوسف، أحد الرهبان العبّاد، مساعداً له^٤.

في هذه الأثناء، تسلّم الدويهي رسالة من قنصل فرنسا في حلب، فرنسوا بيكيت، يطلب منه فيها التوجّه إلى الهدن من أجل تأسيس مرسلية هناك. فأجابه أنّ الأمر يتعلّق من جهة بمجمع انتشار الإيمان وبالسيّد البطريرك، ومن جهة ثانية لا علّم له باللغة الهندية وبعادات تلك البلاد^٥.

كيف كان وضع الكنيسة المارونيّة سنة ١٦٦١؟

في رسالة إلى أمين سرّ المجمع المقدّس، ماريو ألبريشي، يقول الدويهي إنّ جميع البطارقة الموارنة يحملون اسم بطرس تيّمناً بالرسول الذي أسّس كرسيّ أنطاكية. والبطريرك الحالي هو جرجس البسبعلي الذي أوفد إلى روما الراهب الكراملتانيّ الحافي يوحنا ليطلب له درع التثبيت. وفي الكنيسة المارونيّة حالياً أحد عشر أسقفاً؛ أربعة منهم من تلامذة المدرسة المارونيّة، وهم: إسحق الشدراوي (+١٦٦٣) أسقف صيدا الذي يسكن حالياً في بلاد كسروان، وميخائيل الحصريّ (+١٦٦٩) أسقف طرابلس، وأندراوس أخيجان عبد الغال الذي يقيم في حلب ويعمل على ارتداد اليعاقبة، وسركيس الجحري (+١٦٦٨) أسقف الشام الموجود في فرنسا^٦. ثلاثة أساقفة يسكنون مع البطريرك وهم: جرجس حبقوق، ويعقوب الرامي، وجرجس العرجسي. والأربعة الباقون هم رؤساء أديار وهم: بولس

^١ [أخذ المال من الرعيّة ظلماً أو من دون وجه مشروع].

^٢ راجع ملحق المرسلات رقم ٢.

^٣ استقرّ الأمير أحمد المعنيّ في الحكم بعد مقتل أخيه فرقماز في كمين نصبه لهما العثمانيّون، وبعد انتصاره على آل علم الدين البيهقيين.

^٤ ملحق المرسلات رقم ٣.

^٥ ملحق المرسلات رقم ٤.

^٦ راجع بخصوصه كتابنا المذكور أعلاه، ص ٢٤٥-٢٤٩ و ٢٩٨.

الإهديّ رئيس دير مار سركيس وباخوس في إهدن، لأنّ لإهدن أسقفاً خاصاً بما ينوب عن البطريرك عند موته؛ وإبراهيم رئيس مار أنطونيوس قزحياً؛ ويوسف رئيس دير سيّدة حوقا؛ ويعقوب الذي يسكن في كسروان.

أما الرؤساء الزمئيون فهم: الشيخ أبو نوفل الخازن، فنصل فرنسا في بيروت وهو كالفيلير رومانيّ وحاكم كسروان؛ ثمّ أولاد حبش الذين سبق أن كانوا حكام جبل لبنان؛ والشيخ أبو يزيك حاكم "جبلنا". فهم المستشارون وأمناء السرّ لدى أمراء الدروز.

وعن الحياة الرهبانيّة يقول الدويهي إنّها بدأت تضمحلّ وتتلاشى بسبب الظلم والبُلى. والكهنة العلمانيّون هم بغالبيتهم متزوّجون والفقير كبير، لكنّهم مجتهدون جدّاً في الرتب الكهنوتيّة، بينهم حوالي العشرين درسوا في مدرسة روما المارونيّة^١.

الدويهي خادم رعيّة أردّة

إلى جانب اهتمامه في المدرسة، كلّفه البطريرك البسبعلي بالخدمة الرعيّة في بلدة أردّة والقرى المجاورة. ويتبيّن من إحدى رسائله، في تلك الأثناء، أنّ عدد المرضى كان كبيراً جدّاً ممّا اضطرّه الأمر على اقتناء بغلة. فكان يدور طوال النهار ويقوم بزيارتهم مقدّماً لهم الأسرار المقدّسة الضروريّة لصحتهم. بقي إسطفان الدويهي في خدمة رعيّة أردّة وجوارها من شهر تشرين الثاني ١٦٦١ لغاية الأحد الجديد من السنة التالية^٢. فكان لكثرة تعب الرسالة أن هزلت صحّته^٣. وبينما هو على هذه الحال، سأله الأب نقولا اليسوعيّ، رئيس الرسالة إلى سوريا، أن يساعده بالدخول إلى بلاد النصيريّة، لأنّه يجهل اللغة العربيّة وعادات تلك البلاد. واستحصل له على إذن من البطريرك. لكنّ الدويهي اقترح التريث، إلى أن تهدأ حالة البلاد؛ ثمّ يرافقه ويرى ما إذا كان هنالك من أمل لصنع الخير. مع العلم، يقول الدويهي، إنّ الأمر سيكون صعباً^٤.

الدويهي في حلب للمرّة الثانية

الوجود المارويّ في حلب قدم العهد، يعود إلى عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١)، ولغاية القرن الخامس عشر لا معلومات وافية عن أحوال الطائفة المارونيّة. لكنّ المعروف أنّه كان اتّصال دائم بين جبل لبنان وموارنة حلب. من كان يُضطهد في حلب يلجأ إلى جبل لبنان، ومن يهجر جبل لبنان كان يجد في حلب عملاً ومسكناً. وإنّ مختلف عائلات حلب المارونيّة قدّمت من قرى بشري وإهدن وبلوزا وبان وإجبع وسرعل وحدشيت وحصرون وعبدین والعاقورة وغيرها. والدليل على ذلك سجلّ العماد الذي يعود إلى سنة ١٦٦٦، وهو أقدم سجلّ عماد في الشرق، والذي يذكر إلى جانب اسم المعمد اسم البلدة اللبنانيّة التي نزع منها. والدليل الآخر أسماء الكهنة الذين تعاقبوا على خدمة الموارنة هناك.

كانت إذّا حلب مدينة الموارنة الوحيدة لزمان طويل، وكان البطريرك يُعيّرها انتباهاً خاصاً. فلمّا رأى أنّ عددهم تكاثرت فيها عيّن لهم أساقفة ليدبّروا شؤونهم فكانوا يتفقدهم في المناسبات ويجمعون له العشور. وكان يُوفد إلى خدمتهم أفضل تلامذة مدرسة روما

^١ ملحق الرسائل رقم ٥.

^٢ ملحق الرسائل رقم ٧.

^٣ ملحق الرسائل رقم ١٠.

^٤ ملحق الرسائل رقم ٩.

المارونيّة، لأنّها كانت المدينة التي تتفاعل فيها الدبلوماسية الغربيّة ونشاط المرسلين اللاتين على أنواعهم مع الشرق المسيحيّ والعثمانيّ بشكل قويّ. ولما كان إسطفان الدويهي كاهنًا مميّزًا، فقد تركت رسالته الأولى في حلب انطباعًا جيّدًا حدا بالخليّين المطالبة به ثانية لخدمتهم. ولما طلب منه البطريك، سنة ١٦٦٢، التوجّه من جديد إلى حلب تمّنّع الدويهي عن القبول. فتدخّل المطران بولس الإهدنيّ لإقناعه. وبعد تردّد وممانعة دامت شهرين، قَبِلَ بالذهاب إلى حلب إنّما بأمر الطاعة^١. واصطحب معه إلى حلب أهله لكنّهم لم يكونوا ليحافظوا على راحته بقدر ما كانوا ليزيدوا من متاعبه في هذه المدينة^٢.

لدى وصوله إلى حلب، فتح مدرسة، عُرفت "بالكتّاب المارونيّ"، التي اشتهر أمرها على عهد الخوري بطرس التولاوي، تلميذ المدرسة المارونيّة، تخرّج منها نخبة من العلماء ومؤسّسي الرهبانات من مختلف الطوائف المسيحيّة. علّم فيها الدويهي اللغة السريانيّة والعربيّة والإيطاليّة على السواء. عدد تلامذتها عشرون. وكان يعظ في كنيسة مار الياس أيّام الآحاد والأعياد، ويؤدّي خيرًا عظيمًا بين موارنة حلب الذين يتفاعلون مع سائر الطوائف المسيحيّة والإسلاميّة، وهم لا يتعرّضون للظلم وللضرائب التي تُفرض يوميًا في جبل لبنان^٣. ففي حلب، تسنّى للدويهي أن يعايش الطروحات اللاهوتيّة التي تختلف الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة على تفسيرها، وبالأخصّ موضوع رئاسة كنيسة روما، وتقدّمها على سائر الكنائس الرسوليّة، وغيرها من المواضيع التي كانت وما تزال موضع جدل. وجاءت مشكلة اليعاقبة بين كاثوليكيّ وأرثوذكسيّ حلب لتزيد الأمور تعقيدًا. فقد انّخب بطريكاً في آن واحد، ينافس أحدهما الآخر. وفُرِضَتْ ضرائب كبيرة على كلّ من ياتمر بأخيحان، فتركه العديدون. وشرع البطريك الجديد يكتب رسائل عدّة محاولاً فيها تثبيت إيمان جماعته وبرهان مبدأ الطبيعة الواحدة في المسيح. فكان من الدويهي أن تصدّى له مفنّداً آراءه ومثبّناً أنّ في المسيح طبيعتين، وأن ديوسقوروس لم يكن شرعيًّا. وكان يتناقش مع علماء الروم حول المطهر، وحول انبثاق الروح القدس، وحول سلطة بابا روما^٤. وبخبر الدويهي في مراسلاته أنّه ألّف كتيبًا يشرح فيه موقف المجمع الخلقيدونيّ المسكوبيّ الرابع وموقف البابا ليون. أمّا بما يتعلّق بالمرسلين اللاتين في حلب، فقد كان للدويهي موقف متفهّم منهم. وعمل جهده لدى مطران حلب المارونيّ، جبرائيل البلوزاوي، حتّى يسمح لهم بالوعظ علنًا، أقلّه خلال الأعياد المهمّة. وكان يساعدهم أحيانًا في تصحيح عباراتهم العربيّة^٥. وكان أن استحصل من الشعب، ومن المطران جبرائيل البلوزاوي حينئذٍ، ومن البطريك، على إذن بأن يبشّروا أربع مرّات في السنة^٦.

في العام ١٦٦٥، كان الدويهي قد أنهى الدورة الثانية من سلسلة المواعظ التي كان يلقيها في كنيسة مار الياس في حلب، ومجموعها أربع دورات. إلى جانب الرعيّة المارونيّة، كان يحضر هذه العظات كلّ من المرسلين اللاتين والتجار الأوروبيّين وبخاصّة الفرنسيّين منهم،

^١ ملحق الرسائل رقم ١٥١٣.

^٢ ملحق الرسائل رقم ١٣.

^٣ ملحق الرسائل رقم ١٠.

^٤ ملحق الرسائل رقم ١٦١١.

^٥ ملحق الرسائل رقم ١٦.

^٦ المرجع نفسه.

والروم والأرمن والبيعاقبة والنساطرة؛ وكان يحضرها أحياناً بطريرك السريان أندراوس أخيجان الذي، مع كهنة الروم، كان يطالب بالاحتفاظ بتلك المواعظ^١.

الغاية الأولى من تلك المواعظ كانت طبعاً تثقيف الشعب المارونيّ الحليّ، الذي كان يربو عدده أيام الدويهي على ثلاثة آلاف نفس، تثقيفاً روحياً. ويفيد الدويهي بأنّ الكنيسة المارونيّة، القليلة العدد نسبياً، هي الوحيدة من بين ملل الشرق التي تعترف برئاسة بطرس. حتّى ولو تسلّح ضدها الجحيم كلّه فلن يستطيع زحزحة خضوعها للحبر الرومانيّ. فهي محميّة بامتياز خاصّ وبنعمة إلهيّة^٢. والغاية الثانية تتعلّق بسائر المسيحيّين الشرقيّين الذين يأتون بكثرة للاعتراف وللمناولة عند الموارنة غير آبهين لمواقف رؤسائهم المباشرين، ولردّة فعل الأتراك السليّة. وكان الدويهي يحملهم على الاتّحاد بكنيسة روما، وبالكتلّة^٣. ومن أجل ذلك أيضاً، أخذ على عاتقه إعداد مشروع مطابقة ما بين مختلف نصوص القدّاسات التي تقام في الكراسي الرسوليّة الشرقيّة، أي أنطاكية والإسكندريّة وأورشليم والقسطنطينيّة. وتكون المطابقة بين سائر القدّاسات التي تُتلى بالعربيّة وبين اللاتينيّة. كذلك تتمّ المطابقة بين القدّاس اليونانيّ والسريانيّ والقبطيّ والحبشيّ. وفي حال عدم الحصول على نسخة القدّاس الحبشيّ، فإنّه يستبدله بالقدّاس الأرمنيّ^٤.

الدويهي يحاول الرجوع إلى لبنان

في العام ١٦٦٥، طلب الدويهي العودة إلى جبل لبنان حسبما نصّت الاتّفاقيّة المفروضة على تلامذة مدرسة روما، والتي تقضي أن يعمل تلميذ روما ثلاث سنوات تحت إمرة البطريرك في المكان الذي يعيّنه هو: إمّا في جبل لبنان، أو في حلب، أو في قبرس، أو في أماكن أخرى. وبعد انقضاء المهلة المطلوبة حاول الدويهي الرجوع إلى جبل لبنان. فكتب إلى البطريرك بهذا الخصوص وإلى المطران البلوزاوي، أسقف حلب، الموجود في جبل لبنان، في دير طاميش، طالباً إليهما السماح له بالعودة. لكنّ الجواب تأخّر، ربّما بسبب الحرب الدائرة في جبل لبنان، أو بسبب قطع الطرق، أو بسبب نزوح السكّان من مكان إلى آخر. والبطريرك نفسه ترك قنّوبين ولجأ إلى كسروان. وإذا لم يأت الجواب، كتب الدويهي إلى كرادلة المجمع المقدّس يشكي لهم همّه، ويعلمهم أنّه وصل إلى قنّاعة وهي أن لا فرق عنده بعد الآن في أن يعود إلى جبل لبنان أو أن يبقى في حلب. فالتعب هو هو، هنا وهناك^٥. وفي العام ١٦٦٦، دخل في الدورة الرابعة لسلسلة المواعظ^٦.

ولكن يبدو أنّ المسافة بين حلب وروما كانت أقرب من جبل لبنان، لأنّ المجمع المقدّس، لما وصله طلب الدويهي، "المُرسل في وطنه"، بأنّه راغب بالعودة إلى جبل لبنان، كتب إلى القنصل الفرنسيّ في حلب فرنسوا بارون، في ١٩ حزيران ١٦٦٦، يستفسره عن اهتمامات إسطفان الدويهي الحليّة. فأجاب القنصل، في ٢٤ كانون الثاني ١٦٦٨، "أنّ كلّ ما يعرف عن الخوري إسطفان أنّه يعظ

^١ ملحق الرسائل رقم ١٢.

^٢ ملحق الرسائل رقم ١٨.

^٣ ملحق الرسائل رقم ١٦.

^٤ ملحق الرسائل رقم ١٢.

^٥ ملحق الرسائل رقم ١٥.

^٦ ملحق الرسائل رقم ١٦.

غالبًا في كنيسته، ويؤلّف، ويعلم القراءة والكتابة لسبعة أو ثمانية أولاد. إنّه كاهن كفوء بدون شكّ، وبالتأكيد إنّه لمؤسّف أن لا يهتمّ بالرسالة في جبل لبنان حيث يكون بمأمن من الأخطار وحيث الحصاد كثير^١.

في العام ١٦٦٧، صار الدويهي بعمر ٣٧ سنة. ومضى على خدمته في حلب خمس سنوات. وبلغ من النضج والعمق في التفكير والتحليل مستوى رفيعًا حيث يبدو ذلك جليًّا في مراسلاته. ففي إحداها، إلى الكرسيّ الرسوليّ، يقول مثلًا إنّ الشرق، بسبب الظلم والاضطهادات من قِبَل غير المؤمنين والمراطقة، لا يستحقّ أن يُسمّى شرقًا بل خليطًا (chaos) من المذاهب^٢.

إسطفان الدويهي الأسقف

قرّر، إذًا، الدويهي أن ينهي خدمته في حلب بعد ستّ سنوات متواصلة من النشاط الرسوليّ المضني، في صلوات الصباح والستار والمساء والليل والقدّاسات، والتعليم في المدرسة، والخدمة الرعيّة حيث يؤمّن الاعترافات، ويقوم بزيارة المرضى، ويصالح المتخاصمين، ويعظ في جميع مناسبات أعياد السنة وآحاديها... ولقّما وجد وقتًا للخلود إلى الراحة^٣. ففي ٢١ أيار ١٦٦٨، ترك حلب وتوجّه إلى جبل لبنان، وقابل البطريك البسبعلي واستأذنه بزيارة الأراضي المقدّسة، برفقة والدته وأخيه موسى. "وكان قدوة الزائرين، وكثيرون من إخواننا، يقول الأخ تيوفيل تولا الفرنسيسكانيّ، حارس الأراضي المقدّسة، عرفوه وشهدوا بما ألفوا فيه من سعة المعارف، وطهارة السيرة، وأصالة الرأي"^٤. وإثر رجوعه إلى جبل لبنان، أجبره الرؤساء الزمانيّون والروحيّون على السواء، بقبول درجة الأسقفية على جزيرة قبرس، في ٨ تمّوز ١٦٦٨، التي شغل كرسيها بوفاة المطران سركيس الجمري الإهدنيّ^٥. وأثناء زيارته الرعائيّة لموارنة الجزيرة^٦، في العام ١٦٦٩، ترك بعض كتابات بخطّ يده على بعض كتب وسجّلات لا تزال محفوظة حتىّ يومنا. لقد جاء في سجلّ بلدة أسوماتوس ما يلي: "في العام ١٦٦٩م، حضرت أنا الحقير في المطارنة المطران إسطفان الدويهي الهدنانيّ، مطران جزيرة قبرس لزيارة أولاد رعيتي الموارنة في جزيرة قبرس، وإلى أهل قرية أسوماتوس في اليوم الثالث عشر من شهر آذار المبارك من السنة المرقومة أعلاه... وثبتناهم في ميرون الخلاص، الله يثبتهم بأمانته. وسما عيسى ولد ميخائيل شمّاسًا مُرتلًا وبوّابًا، والله ينور عقله ويرشده إلى الدرجات العالية لبنيان بيعته"^٧. وسام الدويهي أيضًا، في كنيسة مار رومانوس بقرية فونو، شمامسة ومرتلين وبوّابين، وكُرّس في بلدة غمبلين طليليًا^٨ للقّداس نقله كذخيرة مقدّسة إلى بكركي الخوري بطرس شبلي، في العام ١٩٠٢^٩.

^١ Rome, .ASPF, SOCG, 235 f. 178 rv.

^٢ ملحق الرسائل رقم ١٨.

^٣ ملحق الرسائل رقم ١٥.

^٤ ذكرها بطرس شبلي، المرجع المذكور، ص ٦٠-٦٢، ثم أخذها عنه الأب فيليب السمراي، الموارنة في جزيرة قبرس، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٢٠. وهي كناية عن رسالة جوابيّة من الراهب الفرنسيسكانيّ إلى البابا إكليمنوس العاشر الذي طلب يستفسره عن البطريك الجديد، أي سنة ١٦٧١، والذي تأخّر إعطاؤه درج التثبيت كما سنرى.

^٥ ملحق الرسائل رقم ١٩.

^٦ عادت جزيرة قبرس، في ٨ آب ١٩٨٨، أبرشيّة مستقلة كما من قبل، وانّخب الخورأسقف بطرس الجميل مطرانًا عليها وجعل إقامته في نيقوسيا. أما الجزء اللبنانيّ فصار يسمّى أبرشيّة إنطلياس وعليها المطران يوسف بشارة.

^٧ ذكر هذه الكتابة بطرس شبلي، المرجع المذكور، ص ٣٢. وأعاد نشرها الأب فيليب السمراي، المرجع المذكور، ص ١٢٠.

^٨ [الأصل السرياني طليلتو أي قطعة خشب من قلب المذبح يتمّ تكريسها كعلامة لتكريس المذبح والكنيسة. وإذا نُزعت من المذبح بطل التكريس].

^٩ المرجع السابق.

إسطفان الدويهي البطريك

بعد وفاة البطريك جرجس البسبعلي، في ١٢ نيسان ١٦٧٠، بسبب وباء الطاعون الذي قضى به في حلب والشام وحدهما أكثر من مئتين وخمسة عشر ألفاً، انتُخب إسطفان الدويهي، مطران قبرس، خلفاً له، في أيار من السنة نفسها، وهو في الأربعين من عمره. لم يرضَ الجميع به بطريكاً في بادئ الأمر. فالشيخ أبو نوفل الخازن كان أوّل المعارضين، لأنّه يعتبر أنّ الانتخاب صار على عجل وبدون استئذانه هو، فنصل فرنسا في بيروت^١. وحتى إنّ بعض المطارين كانوا أيضاً غير مستعدّين للاعتراف بإسطفان الدويهي بطريكاً عليهم. ولقد كتبوا إلى روما بهذا الخصوص معيّرين عن عدم رضاهم^٢. لكّل هذه الأسباب، لما وصل إلى روما، قاصده، يوسف الحصريّ، مطران طرابلس في ما بعد، لطلب درع التثبيت، استمهله الكرسيّ الرسوليّ فترة غير قصيرة. وكان في هذه الأثناء أن توسّط إسطفان الدويهي إلى الكاردينال بربريني في أواخر آذار ١٦٧١، وإلى رئيس اليسوعيّين العامّ، الأب جيوفاني بابلو أوليفا، في ٢٨ آب من السنة نفسها، للحصول على درع التثبيت والباليوم من روما. وفي هذه الرسالة، يُعبّر عن عاطفته البنيويّة تجاه أساتذته القدماء في المدرسة المارونيّة، ويعدّ بحماية المرسلين اليسوعيّين^٣. ثمّ اتّصل الدويهي بقنصل فرنسا في صيدا بونكورس مدكّراً بالتعاون العسكريّ والإنسانيّ الذي تمّ بين الصليبيّين والموارنة، لكنّه لم يطلب صراحة تدخّله في تسريع الحصول على درع التثبيت^٤. وتدخّل أيضاً لمصلحة الدويهي رئيس رهبان القديس فرنسيس في القدس^٥.

بعد كلّ هذه الاتّصالات مع السلطات المعنيّة الخارجيّة، والمسلكيّة التي تحلّى بها إسطفان الدويهي، على الصعيد الداخليّ، والمصادقيّة التي فُطِرَ عليها، هدأت الأمور وتلاشت الاعتراضات واستطاع أن يفرض نفسه عن استحقاق وجدارة على كنيسته، وحصل على البراءة الرسوليّة ودرع التثبيت في ٨ آب ١٦٧٢. لكنّه لم يتسلّم ذلك إلّا في تشرين الأوّل سنة ١٦٧٣ إثر عودة يوسف الحصريّ قاصده، والذي جاء أيضاً بالكواليريّة للشيخين أبي قنصوه وأبي ناصيف الخازنيّين.

جعل إسطفان الدويهي إقامته في قنّوبين، مقرّ أسلافه وخلفائه من بعده حتى سنة ١٧٩٠. غير أنّ المعارك الدائمة آنذاك، خاصّة تلك التي كانت تدور بين الدروز والمتاوله، وبين الأمراء اللبنانيّين والباشوات الأتراك، والمظالم التي كان يتعرّض لها، حملته على الاحتماء مراراً في المغاور والكهوف المجاورة، وإلى الالتجاء إلى أماكن أكثر أمناً، مثل دير مار شليطاً مقبس في كسروان، ومجدل المعوش في الشوف. وإذا لم يكن للحجّة حاكم ثابت، كان الدويهي يجهد ليلاً ونهاراً ليقيم لها رأساً مارونيّاً واحداً. وكم مرّة جمع مشايخها وغضب عليهم!

^١ كان الكهنة والأساقفة والأعيان والمشايخ والعلمانيّون الموارنة يشاركون في انتخاب بطريركهم، قبل أن تبطل هذه العادة ويصبح انتخاب البطارقة وفقاً على الأساقفة وحدهم دون غيرهم.

^٢ لم نستطع معرفة الأسباب الكامنة وراء اعتراض الأساقفة على انتخاب الدويهي. ومن المفترض الاطلاع على اعتراضاتهم والكشف عنها. يبدو من بعض المراسلات أنّ سبب الرفض هو الديون الباهظة التي تركها سلفه.

^٣ ملحق المراسلات رقم ٢٣.

^٤ ملحق المراسلات رقم ٢٤.

^٥ بطرس شبلي، المرجع المذكور، ص ٦٠-٦٢.

^٦ عن براءة التثبيت البابويّة، في ٨ آب ١٦٧٢، ودرع كمال السلطان الحزريّ، المعروف بالباليوم، في ٢ كانون الأوّل ١٦٧٢، راجع بطرس شبلي، المرجع المذكور، ص ٦٦-٧٠، ثمّ:

T. ANAÏSSI, Bullarium Maronitarum, roma, 1911, pp.170-179.

وعن براءة أخرى من البابا إكليموس العاشر إلى رئيس عامّ اليسوعيّين، في ٢٨ آب ١٦٧١، راجع:

A.RABBATH, Documents ineditis, I, Paris-Leipzig, 1905, pp. 180-181.

وكم مرّة بكّتهم وأهداهم إلى الصلاح بغير فائدة! وذات يوم، دعاهم إلى اجتماع في بلدة أيطو، للتداول بشؤون البلاد، وكان ذلك تحت شجرة تين. وبسبب أنّهم لم يتفقوا ولم يسمعوا كلامه طعنهم بالحرم ولعنهم وغضب عليهم. فللوقت يست التينة وسقط ورقها، ولا تزال يابسة^١. كلّ ذلك للدلالة على اهتمام الدويهي بتنظيم كنيسته تنظيمًا منفتحًا على الدروز، هذا التنظيم الذي أصبح تقليدًا مارونيًا منذ بطريكيّة يوحنا مخلوف، وعلى سائر الكنائس الشرقية والمرسلين اللاتين، في الداخل، وعلى الكرسي الرسوليّ وفرنسا، في الخارج. من عمق وادي قنوبين كان يخاطبهم ويجادلهم ويجاحجهم. هدفه أن يحافظ على توازن سليم بين الانفتاح على كنيسة روما، حيث حصّل ثقافته، وبين الإبقاء على خصائص الكنيسة المارونيّة الأنطاكيّة السريانيّة، التي تعيش جنبًا إلى جنب مع سائر الكنائس الشرقية، تحيط بها شعوب كثيرة من غير المسيحيّين. لهذه الكنيسة، التي أحبّ، والتي جمع لها كلّ ما وصلت إليه يده من كتب ومخطوطات ووثائق، كرّس حياته، وأعطاهها هويّة مشرقيّة، مطعّمة بتنظيم لاتيخيّ، فالأساقفة الذين رسمهم، كانوا جلّهم من تلامذة المدرسة المارونيّة في روما^٢. ولم يتوان عن سيامة راهب فرنسيسكانيّ إسبانيّ أسقفًا على صور، يوليانو راميرز، في العام ١٦٩١. وكان هذا الأخير شديد الغيرة على الدين، وأثبت أنّه يستطيع مساعدة الموازنة لأنّه حصل على مساعدة من دوقه أفيرو (Avero) قدرها ٢٠٠ سكودي سنويًا، من أجل إقامة مطبعة في جبل لبنان. وقد كان من المقرّر أن تُوضَع في كسروان، في دير مار شليطّا - مقبس، حيث يقيم البطريرك، وحيث يتولّى مشايخ آل الخازن حمايتها. وهكذا، لو تحقّق هذا المشروع، لكان تسنّى للدويهي طبع مؤلفاته بنفسه؛ هذه المؤلفات التي كانت تنتظر من ينشرها في أدراج مكتبة المدرسة المارونيّة في روما، وفي مكتبة مجمع انتشار الإيمان^٣.

وفي عهد البطريرك الدويهي تمّ إصلاح الرهبنة المارونيّة الرجاليّة، وتنظيمها تنظيمًا لاتيخيًا غربيًا. وبفضل شخصيّة الفدّة، ومسلكيّته النسكيّة، ورؤياه النيرة، صارت الكنيسة المارونيّة، في عهده، ورشة عمل فريدة، طالت البشر والحجر. وما تزال هذه الكنيسة حتّى اليوم تعرف من معينه الذي لا ينصب.

###

من يدرس سيرة حياة إسطفان الدويهي يتبيّن له أنّ هذا البطريرك لم يدقّ طعم الراحة في حياته: حروب كثيرة، ومظالم متعدّدة، ومتغيّرات سياسيّة جرت أيام بطريكيّته، كان شعاره فيها المحافظة على مصالح شعبه، وحمل همومه، والمدافعة عنه أمام أعلى المناابر السياسيّة والدينيّة في ذلك الزمان. وكان يقيم الدنيا ويقعدها حفاظًا على "القطيع الصغير" كيما لا تُمسّ كرامة بطريك أنطاكية وكرامة بني مارون. ها هو يرأس ملك فرنسا وقناصله في أسكلة الشرق، ويكتب باستمرار إلى بابا روما والمجمع المقدّس، ولا يتوانى عن إيفاد

^١ راجع سمعان عوّاد، مختصر حياة أبينا البطريرك مار إسطفانوس الدويهي... فاتكان سرياني ٤٠٠.

^٢ رفع الدويهي إلى درجة الأسقفية، خلال بطريكيّته، أربعة عشر مطرانا هم: لوقا القرباصي (١٦٧١)؛ بطرس ضومط مخلوف الغوسطاوي (١٦٧٤)؛ يوسف بن بربر السمعيّ الحصري (١٦٧٥)؛ يوحنا إبراهيم (١٦٧٧)؛ بطرس ابن القس إبراهيم الإهدني (١٦٨٠)؛ يوسف مبارك الريفوني (١٦٨٣)؛ حتا محاسب (١٦٨٩)؛ جبرائيل الدويهي (١٦٩٠)؛ جرجس عبيد بنيمين الإهدني (١٦٩٠)؛ يوحنا حبقوق البشعلاني (١٦٩١)؛ يوسف الشامي (١٦٩١)؛ يوليانو راميرز (١٦٩١)؛ يوسف سليمان (١٦٩٥)؛ يعقوب عوّاد (١٦٩٨).

^٣ راجع حول سيامة الفرنسيسكانيّ الإسبانيّ أسقفًا مارونيًا، أرشيف مجمع انتشار الإيمان في روما،

CP, Maroniti, 30, fol. 677r-679r; 683rv.

ومن أجل الاستزادة في ما يتعلّق بمشاريع المطابع في جبل لبنان، أنظر خاصّة مقالتنا:

Nasser GEMAYEL, "Histoire du Livre imprimé au Liban", in Livres du Liban, Paris, 3-19 novembre 1989, pp.14-32.

الأساقفة والقصّاد ينوبون عنه ويجوبون البحار والأمصار^١، حتى يتحنّس الغرب المسيحيّ، من روما إلى باريس، ومن توسكانا إلى إسبانيا، هموم مسيحيّ الشرق، فيضغط على القسطنطينيّة وعملائها ليكفّوا ظلامتهم.

لا تزال وثائق البطريركيّة المارونيّة في بكركي، وأرشيف الوزارة الخارجيّة الفرنسيّة في باريس، ووثائق مجمع انتشار الإيمان في روما تحتفظ بتلك المراسلات. ومن المفترض أن تزخر محفوظات السلطنة العثمانيّة أيضًا بمعلومات مماثلة، وبتفاصيل نادرة قد لا تكون موجودة إلّا في أنقرة. حسّبنا، من كلّ ذلك، أن نشير إلى بعض الجديد القديم الذي يلقي أضواء كاشفة جديدة على حياة البطريرك الدويهي في سنيه الأخيرة، أي من سنة ١٦٩٥ حتى مماته سنة ١٧٠٤.

إنّ المضايقات التي كان يتعرّض لها البطريرك إسطفان الدويهي باستمرار حملته على هجر دير قنوبين، الكرسيّ البطريركيّ، مرّات كثيرة، واللجوء تارة إلى كسروان في كنف مشايخ آل الخازن، وطورًا إلى بلاد الشوف في حمى بني معروف. وفي كلّ مرّة كان يتدخّل أكثر من فريق، خارجي وداخليّ، حتى يعود إلى كرسيّه مرفوع الجبين، محميّ الجانب، مطمئنًا على المصير. ها هو والي طرابلس يطيب خاطر الدويهي، في العام ١٦٩٥، ويحثّه على العودة إلى كرسيّه وأنّ القنصل الفرنسيّ يدفع عنه الميري، فيقول له:

"فخر الملة المسيحيّة بترك (كذا) قنوبين وفقه الله تعالى.

والثاني نرفكم هو أنّه بوصول البيورلدي إليكم ووقوفكم عليه تكونوا طيّبين القلب وال خاطر وارجعوا لموضعكم وما بيتاخذ منكم زيادة عن عادتكم ولا منعطيكم لأحد. وواصل لكم مكتوب من القنصل حتى تفقوا عليه ونبقا نحوله عليكم بقوا توردوا له المعتاد لجهة الميري وياخذكم على كيسه فلا يصير لكم عاقه ولا توقّف عن الرجوع بوجه من الوجوه تعلمون ذلك وتعهدهوه غاية الاعتهاد"^٢.

ثمّ يعاود الكرّة أرسلان محمّد، والي طرابلس، في العام ١٦٩٧ ويطيب خاطر الدويهي بعد أن أبلغه ترجمان قنصليّة فرنسا في طرابلس الاعتداء على دواب دير قنوبين، ويطلب منه العودة إلى قنوبين، فيقول له:

"فخر الملة المسيحيّة اصطفانيوس بترك قنوبين وفقه الله تعالى والثاني نعرفك هو أنّه أمهي لنا الترجمان الذميّ (أنطون) طربايه (طربيه) بأنّ ضابط الجبّة سخّر دواب الدير (قنوبين) وصار لك تشويش خاطر فنحن أيضًا ليس لنا رضى يصير عليك، ولا على غيرك تعدي قطعًا، وقد نبهنا على ضابط الناحية أنّه لا بقا يتعارض دواب دير قنوبين ولا ساير الديورا التي في الجبّة حواليك فيكون خاطرك طيب من ساير الوجوه. ثمّ نعرفك هو أنّه تتفق أنت ومشايخ الناحية على مال الميري المطلوب منك جاري العادة مثلما يصير القول بينك وبينهم وتقشع لك كفيل يدفع المال عنك مثل المعتاد وتكون متقيّد مع مشايخ الناحية بأمر الميري وعمار الناحية واستمالة قلوب الفقرا الرعايا وذلك ممّا يسرّنا منك وتكون متقيّد أيضًا في انتظام أحوال ديورتك ودواجم ينزلوا ويطلعوا لا يتوهّموا من سخرة ولا من

^١ منهم بطرس مبارك، ويوحنا مرمكون، والمطران بطرس مخلوف الغوسطاوي.

^٢ بكركي، جاور البطريرك الدويهي، رقم ٢، ورقة ١٧. [...] وفي الوثيقة رقم ١٨ و ١٨ bis مراسلات حول طيبان خاطر الدويهي من جهة الطاحون والأرض التي اشتراها من "أبو كيروز".

التعدّي نحن ما نريد في زماننا يصير على أحد غدر ولا تطاول قطعاً. وطبّب خواطر جماعتك من ساير الوجوه يكونوا منه على وثيقة تامة تعلم ذلك وتعتدهه غاية الاعتقاد". سنة ١١٠٩ هـ^١.

إنّ الوصف الدقيق والفريد الذي نعرفه عن شخصيّة البطريرك إسطفان الدويهي في شيخوخته حفظته رسالة القنصل الفرنسيّ في صيدا جان باتيست إستيل (١٧٠٢-١٧١١) إلى الوزير بونشارترين، في ١٦ آب ١٧٠٢^٢. والمذكور حلّ ضيفاً عليه مع بعض التجار الفرنسيّين، والترجمان الثاني في قنصليّة فرنسا في طرابلس أنطون طرييه، بعد عودته من زيارة الأرز، في ١٤ آب ١٧٠٢، وقضى في كنفه، في قنّوبين، يومين ونصف. كان البطريرك على علم بقدمه؛ لذلك لما اقترب الوفد من الكرسيّ البطريركيّ، أرسل لاستقباله أربعة أساقفة، بينما بقي هو ينتظر أمام مدخل الدير على رأس تطواف والأجراس تدقّ. ولما وصل القنصل أخذه البطريرك بيده وأدخله الكنيسة والكلّ يرتل نشيد الشكر لله. وكان لملك فرنسا، الذي تعلق صورته الجهة اليمنى من كنيسة الصرح، نصيبه من صلوات البطريرك وبركاته. هذا البطريرك هو شيخ مهيب، عمره ثمانون سنة (!) لكنّه كامل الوعي كرجل في الأربعين. سأل عن الحالة في أوروبا، وسرّ لموت أمير أورانج لأنّه كان خصماً للملك الفرنسيّ لويس الرابع عشر. وصرّح للقنصل أنّه يصلّي كل يوم للملك ولعائلته، ولنصرة عساكره على أعدائه. وطوال إقامة القنصل والوفد المرافق في قنّوبين، لم يُسمع إلّا صلوات ترتفع على نيّة الملك الفرنسيّ. لم يحفظ القنصل إستيل، من زيارته لقنّوبين وللبطريرك، إلّا الذكر الطيّب. وقبيل مغادرته طلب بركة البطريرك، ثمّ أهدى إليه ساعة يد جميلة، عربون شكر، قبلها منه مسروراً.

وفي ٢٥ تشرين الأوّل (أكتوبر) من السنة ذاتها يأتي القنصل إستيل على ذكر البطريرك الدويهي بشكل إيجابي، فيقول في رسالته إلى الوزير بونشارترين إنّ المساعدة الماليّة التي يبعث بها الملك الفرنسيّ إلى البطريرك تتوزّع بالشكل المناسب، لأنّ هذا البطريرك هو رجل قديس، ينفق كلّ ما يقدّمه له المحسنون المسيحيّون في الغرب، وما يجيبه من الموارنة، على الذين هم أكثر عوزاً من جهة، ويفدي كلّ من يقع أسيراً في أيدي الأتراك إذ يخاف على شعبه من الضرب والمعاملة السيّئة ومن الجحود أحياناً، من جهة ثانية.

وكان أنّ حدث معه، في شيخوخته قبيل مماته، ما كان يخشى حدوثه مع شعبه. فقد حضر عيسى حماده، حاكم جبّة بشريّ، أمام البطريرك وحاول إكراهه على دفع مبلغ من المال لإيفاء ما عليه إلى متسلّم طرابلس. ولما لم يستجب البطريرك الشيخ لطلبه، عاجله بلطمة كادت أن تطرحه أرضاً.

فاستنجد البطريرك بمشايخ آل الخازن الذين هرعوا إلى قنّوبين مع أربعمئة جنديّ، وساروا به إلى كسروان بعد أن غفر لعيسى حماده تهوّه وشنيعته، ونهى الخوازة عن البطش به. ولم ينسَ أن يحيط قنصليّة فرنسا في طرابلس بالأمر، ويطلب من نائب القنصل بولار Poullard إيفاد الترجمان أنطون طرييه إليه لبضعة أيّام ريثما يعود إلى كرسيّه في قنّوبين. ولقد حقّق بولار أمنيته لسببَيْن: الأوّل، لأنّه

^١ بكركي، المرجع المذكور، ورقة ٢٠. [...]. والموضوع ذاته يتكرّر في الوثيقة رقم ٢١ وهي من السنة ذاتها.

^٢ أنظر الرسالة بنصّها الفرنسيّ في:

Ismail, Adel, *Documents diplomatiques et consulaires relatifs à l'histoire du Liban*, vol. 1, pp. 35-47, ou Consulat de Sedye, registre no 1017, lettre 8.

رجل قديس، والثاني، لأنّه متقدّم على أكثر من أربعين ألف مارونيّ كاثوليكيّ^١. وبعد الاستنكارات المتعدّدة من جانب كتخدا طرابلس^٢، والأمير بشير الشهابيّ الأوّل^٣، وتعهّد عيسى وإسماعيل حماده بعدم التعرّض للبطريك ولدير قنّوبين بعد اليوم، ترك البطريك الدويهي كسروان للمرّة الأخيرة، في التاسع عشر من نيسان ١٧٠٤، فوصل إلى قنّوبين في السادس والعشرين منه. ولم يلبث أن نُقل عليه المرض الذي أودى بحياته في الثالث من أيّار من السنة نفسها، يحيط به أساقفته ورهبانه وجمهور كبير من الشعب. دُفن، حسب وصيّته وإلحاحه، في مغارة القديسة مارينا، في مدافن سلفائه البطارقة.

وفي اليوبيل المئويّ الأوّل لتأسيس المدرسة المارونيّة في روما، كُتبت باللاتينيّة تحت رسم البطريك إسطفان الدويهي ما يلي:

"ليس من مديح يوفي هذا الحبر حقّه لأنّه يفوق كلّ ثناء. رَفِّي إلى المُلْكِ فَوُجِدَ أعلى من هذا المقام واجتهد في أن يفوق ما سواه لا بالعظمة بل بالصلاح والفضل. كتب تواريخ أمّته ووطنه وطقوسهما فاستحقّ بذلك المدحة. فُلْتُذِغَ إِذَا مناقبه ليس الأجيال الحاضرة وحدها بل الأعصار السالفة والمستقبلة أيضًا. سارَ سيره رهبانيّةً. وكان يتفرّغ لشأن نفسه ولخدمة الله كمن ليس له رعيّة يهتمّ بتدبيرها. وكان يهتمّ بالآخرين كمن ليس له انشغال بذاته وباللّه. وكان يسعى في أن يعنى غيره. يا لها من ديار سعيدة أخذت الجزية من رئيسها بدلًا من أن تدفعها لوليّ أمرها"^٥.

وفي السينودس الذي عُقد في بكركي، برئاسة نيافة الكاردينال أنطونيوس خريش، في الثالث من أيّار ١٩٨٢، تقرّر المباشرة بدرس التقدّم بدعوى تطويبه إلى المراجع المختصة في روما، وتشكّلت لجنة برئاسة المطران إغناطيوس زيادة، رئيس أساقفة بيروت يومئذٍ، لهذه الغاية. ونزولًا عند رغبة "رابطة البطريك إسطفان الدويهي الثقافيّة في زغرتا" واستجابة لإلحاحها، تألّفت لجنة أسقفية جديدة، بمرسوم من البطريك نصرالله صفيّر، يحمل الرقم ٨٧/١٣٢، قوامها المطارنة جورج أبي صابر، وبولس إميل سعادة، وبشارة الراعي، "لاستمزاج رأي روما". وبعد ذلك، تشكّلت لجنة ثالثة، بمرسوم من البطريك صفيّر ذاته، رقمه ٨٨/١٦٦، تضمّ المونسنيور ميشال الحايك، طالبًا لدعوى التطويب، والأب بولس صفيّر، محاميًا، والخوري يوسف طوق، مسجّلًا، إضافة إلى المطارين المارّ ذكرهم^٦.

^١ راجع نصّ رسالة بولّار إلى بونشارترين في ٨ نيسان ١٧٠٤ في أرشيف الوزارة الخارجيّة الفرنسيّة، باريس:

A.E. B1 1114, Tripoli de Syrie, Correspondance consulaire, (1667-1715) f. 34 rv.

^٢ بكركي، جارور البطريك الدويهي رقم ٢ ورقة ١٠ و١١. نُشِرَ بطرس شبلي، المرجع المذكور، ص ٢٤٤-٢٤٥، الوثيقة رقم ١١ فقط.

^٣ المرجع السابق، ورقة رقم ٦ و٩. نُشِرَ بطرس شبلي، المرجع المذكور، ص ٢٤٥-٢٤٦ نصّ الوثيقتين.

^٤ راجع تفاصيل موته ومراسم الدفن في فاتيكان سرياتي ٤٠٠، وبتطرس شبلي، المرجع المذكور، ص ٢٤٧-٢٥٠.

^٥ راجع الكتاب الذي عنوانه باللاتينيّة:

Compendiaria enarratio apparatus in Honorem, D. Ioannis evangelistae Romae, MDCLXXXV, P.49.

^٦ ثمّ سمعان عوّاد، فاتيكان سرياتي ٤٠٠. ولقد نشر هذا المديح، بالعربيّة، بطرس شبلي، المرجع المذكور، ص ١٢٥-١٢٦.

^٧ راجع كلّ هذه التفاصيل، وغيرها، في كتراس عن "عصر الدويهي الكبير"، منشورات رابطة البطريك الدويهي الثقافيّة، زغرتا، ١٩٩٠، ص ٥-٨.